أناشيد صوفية

جيتـــانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٢٦ —

لقد دلف إلىّ وجلس إلى جانبي ولـكنى لم أستيقظ . يا لتعس هذه النومة ، ويا لشقاوتى !

جاء والليل ساج وفى يده قيثاره ، فرن نغم لحنه العذب خلال أحلامي

يا أسفا ، أهكذا تضيع ليالىّ ؟ آه ، لماذا أحرم — دائماً — النظر إليه وأنفاسه تداعبنى فى نومى ؟

— ٢٧ —

النور ؛ أوه ، أين هو النور ؟ أشعله بنار الرغبة المتأججة

ها هو المصباح ولـكنه لا يضيء أبداً ؛ إنه مظلم لحظك يا قلبى !

آه ، إن الموت خير لك

إن البؤس يقرع بابك ليوحى إليك بأن سيدك يقظان يناديك إلى ميعاد الهوى فى غسق الليل

السماء مثقلة بالغيوم ، والمطر ما يبرح يهطل مدراراً ، وأنا لا أعرف ماذا يضطرب فى جوانحى ، ولا أعى له معنى

إن وجهي يكفهر لومضات البرق ، وقلبي يتلمس طريقه إلى حيث موسيقا الليل تناديه

النور ؛ أوه ، أين هو النور ؟ أشعلة بنار الرغبة المتأججة !

السماء ترعد ، والرياح تهب هوجاء تملأ الفضاء ، والليل قاتم كالصخرة السوداء ؛ فلا تدع الظلام يخيم علينا ، واشعل مصباح الهوى بنور حياتك

— ٢٨ —

إن صلابة الرأى عقال يتألم قلبي حين أحاول أن أتخلص منه

إن الحرية هى كل ما أبتغى ، وأنا أستشعر الخجل حين أتمناها

أنا أومن بأن بين يديك الثراء العريض ، وأنك أنت صديقى الحميم ، ولـكنى لا أجد فى نفسى الجرأة على أن أزيل كل ما يملأ حجرتى من بَهْرج

إن هذا السجف التى يسترنى هو كفن من التراب والموت

أنا أبغضه غير أنى أضنى به

إن ديونى كثيرة وخطاياى أعظم ، وعيوبى التى أخفيها فى نفسى تثقلنى ؛ وحين أنطلق لأطلب إليك الاحسان تسيطر علىّ رِعْدة شديدة خشية ألا تتقبل صلاتى

— ٢٩ —

إن فى هذا البناء — جسمى — شبحاً يذرف الدمع فى خلوته ، وأنا دائماً فى شغل شاغل أشيد حوله سوراً عالياً ، وعلى مرّ الأيام ارتفع سَمْكه فعميت عن حقيقة وجودى وأنا فى ظلامه القاتم

لقد أخذتنى العزة بهذا السور الشامخ فاندفعت أطليه بالطين والرمل خشية أن تكون به فُرجة ، ولـكن ما بذلت من جهد أعمانى عن حقيقة وجودى

— ٣٠ —

ها أنا أتيت وحيداً لأفى بوعدى ؛ ولـكن من هذا الذى يتبعنى فى دجى الليل وسكونه ؟ وعبثاً تحولت عن طريقى لأضلله

إنه يثير الغبار وهو يمشى الخيلاء ، وهو يردد قولى فى صوت أجش

إنه روحى الضئيل — يا إلهى — وهو لا يستشعر الخزى ، وأنا أستحى ألج بابك برفقته

— ٣١ —

قلتُ : « يا أيها السجين ؛ خبرنى ، من ذا الذى قيدك هنا ؟ »

ودققوا فى الموازنة بين فاشل وناجح قبل أن تحكموا بأن هذا فشل لأخلاقه دون غيرها ، وهذا نجح برذائله دون غيرها . ولا تظنوا طيبة القلب وسلامة الضمير والبعد عن إيذاء الناس وسائل وأسلحة تكفى وحدها للنجاح كما ظن ظانون أن الايمان وحده كاف لهزيمة الأعداء ؛ لأن الله قد سير هذا الـكون على نواميس لا تتخلف ، وجعل الميزات المعنوية والنفسية مرجحات بين من تساويا مادياً وفهما النواميس فهماً واحداً ؛ وبدل أن تهيب بدهاقنة الدين وفلاسفة الأخلاق أن يتدخلوا فى سوق الفضائل معدلين ، أهب بزعماء الثورة أن يتدخلوا فى تقدير الحياة مدققين ؛ فإن ثاروا بعد ما كملت لهم هذه الدقة فعلى الدهاقنة أن يعيدوا النظر فيعدلوا ويحوروا

أمين الخولى

قال: « هو سيدى ، لقد ظننت أنى أبذّ كل إنسان على الأرض بما لدى من ثراء وقوة ، وبين يدى بيت المال وهو ينضم على كل ما يملك مليكى . وحين يغلبنى النعاس أنطرح على فراش كان فى — يوم ما — سرير سيدى ؛ وحين أستيقظ أجد نفسى سجيناً فى بيت المال »

قلت : « يا أيها السجين ؛ خبّرنى ، من ذا الذى صنع هذه السلسلة الصلبة ؟ »

قال : « بيدى الصناع ابتدعتها ، وخُيل إلى ان قوتى الكامنة ستقبض على العالم كله وأظل أنا طليقاً فى أمان ، فقضيت عمراً من عمرى أهين هذه السلسلة أستعين بالنار والمقامع الحديدية الشديدة ؛ فلما فرغت من عملى وتمت حلقاتها وجدت نفسى مقيداً بها »

— ٣٢ —

لقد حاول أحبائى على الأرض جهدهم أن أعيش بين أيديهم فى أمان ؛ ولكن حبك أنت يفوق حبهم . أنت يامن تكفل حريتى

إنهم يلازموننى دائماً خيفة أن أنساهم ، وها هي الأيام تمر سراعاً وأنت ما تزال تتستّر خلف الحجب

وإذا لم أتوسل إليك فى صلواتى ، وإذا لم أحفظك فى قلبى ، فحبك لى ما يزال ينتظر حبى لك

— ٣٣ —

وحين يسفر وجه الصبح يغدون إلى دارى زمراً ويقولون « سننزل فى هذه الغرفة الضيقة »

ثم يقولون «سنشد أزرك فى عبادة ربك لننال فضل إحسانه» ثم قبعوا فى ركن فى هدوء وتواضع

وفى هدأة الليل تدافعوا إلى هيكلى المقدس فى صخب ، يستلبون القرابين من محراب الرب فى شرَه

— ٣٤ —

هب لى بعض نفسى فأذكرك كلك

هب لى بعض عزمى فأشعر بك فى كل مكان ، وأنزع إليك فى كل عملى وأحبوك بحبى فى كل آن

هب لى بعض نفسى فلا أستغنى منك

هب لى بعض هذه الأغلال فأنا مقيد بمشيئتك ، وما تريده فهو آت ... هذه القيود هى قيود حبك

— ٣٥ —

حين يطمئن الفؤاد فلا يستولى عليه الذعر فيرتفع الرأس عالياً

حين تكون حرية الراى ،

حين لا يتصدع العالم شيعاً وتفرق بينه الحدود الضيقة ،

حين تنبعث الكلمات من أعماق الحقيقة ،

حين يمد التناحر الدائم ذراعيه صوب الكمال ،

حين يهتدى الرأى الناضج إلى طريقة السوىّ فلا يضل في متاهات التقاليد البالية

حين تجذب العقل إليك ... إلى الفكرة والعمل الأبديين

إلى سماء الحرية ؛ انزع — يا إلهى — عن وطنى سباته العميق

— ٣٦ —

ها هى صلواتى إليك — يا إلهى — : جُذّ أصول العوز من قلبي؛

امنحني القدرة على أن أحمل أفراحى وأتراحى معاً

امنحنى القدرة على أن أخلق من حبي عملاً صالحاً

امنحنى القدرة على ألاّ أنهر فقيراً ، وألاّ أخرّ على ركبتى أمام غطرسة الجبار

امنحنى القدرة على أن أسمو بعقلى فوق السخافات الأرضية

ثم امنحنى القدرة على أن أنزل فى رضا عن كبريائى أمام مشيئتك

— ٣٧ —

يتراءى لى كأن رحلتى قد انتهت عند الغاية ، عند آخر نزوة من نزوات قوتي — ها هو الطريق قد أغلق أمامى ، ونفد زادى وآن لى أن أستريح فى سكون الظلام

ولكن يخيل إلىّ أن إرادتك لا تجد فىّ النهاية ، فحين تموت الكلمات الرنة على شفتىّ يتفجّر القلب بنغم عذب ، وحين تنسد أمامى المسالك القديمة يتفتّح أمامى عالم جديد فيه العجائب

— ٣٨ —

إنني أهفو إليك ، إليك وحدك — دع قلبي يرددها مرات ومرات فى غير نهاية . إن الوساوس التى تلح علىّ صباح مساء ، لتصرفنى عنك ، إن هى إلاّ جوفاء خدّاعة

حين يتوارى الليل خلف سجوفه ينتظر بسمة الفجر ، ترن فى أعماق قلبى صيحة : إنني أهفو إليك ، إليك وحدك

حين تمدو العاصفة الهوجاء فى طريقها تبتغى الهدوء فتبدد هى السكون فى صولة ويأس ... فى هذا الحين تعصف ثورتى الجامحة بحبك وهى ماتزال ترسل صيحاتها : إنى أهفو إليك ، إليك وحدك

كامل محمود حبيب